مجلة العلوم الإسلامية
العدد الثاني – المجلد الأول
ديسمبر 2018 م
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

المصطلحات الصوفية من خلال كتاب "زبد خلاصة التصوف المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز" للإمام العز بن عبد السلام المتوفى سنة 660 هـ

إبراهيم نادن الحدوشي
الكلية المتعددة التخصصات / آسفي || جامعة القاضي عياض || المملكة المغربية

الملخص: هَدِفَ هذا البحث إلى تتبع المصطلحات الصوفية الواردة في كتاب "زبد خلاصة التصوف المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز للإمام العز بن عبد السلام المتوفى سنة 660هـ، وذلك من أجل فهم وتمثل هذه المصطلحات من أجل اكتساب العلم الصوفي، ومعرفة أحوال المتصوفة وتجاربهم الوجدانية. وقد تساءلنا في أثناء ذلك عن طريق الوصول إلى هذه المعرفة انطلاقا من شرح العز بن عبد السلام للمصطلحات الصوفية بالنظر إلى مكانته العلمية، ثم ما هو دور التعرف على هذا الدرس المصطلحي الصوفي عموما في بعث الطمأنينة الروحية والسكينة النفسية في المجتمع العالمي المعاصر، الذي توترت فيه العلاقات، وجعلت الإنسانية تعرف العديد من مظاهر التمزق الوجداني، والقلق الوجودي، الشيء الذي يطرح إشكالية العلاقة العلمية بين دراسة المصطلح الصوفي باعتبار مركزيته الأخلاقية، وتحقيق هذه الأهداف السلوكية الإنسانية الهادية إلى طريق الله؟ وقد جعلتنا هذه الدراسة نستنتج أن التصوف السني هو سلوك جماعات متمدنة ترى في التصوف منهجا في الحياة وفلسفة في الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تطرحها الحياة الإنسانية في مختلف الأزمنة والأمكنة رعاية لمصالح الناس الآجلة والعاجلة، وذلك ما يحقق طمأنينة النفس وراحتها بعيدا عن الجدل البعيد عن الحقيقة العلمية العملية.

الكلمات المفتاحية: العلم- المصطلحات- التصوف- السلوك- الوجدان- التوازن.

مقدمة:

حين يثار موضوع التصوف ينصرف البال إلى الأخلاق لارتباط التصوف بالميل إلى الكمال الروحي، ولأن الأخلاق مكون رئيس في بناء الشخصية الإنسانية، إذ هي القوة التي يمتلكها الإنسان في نسج العلاقات المتنوعة بينه وبين محيطه، ولذلك يعمل الإنسان على الذهاب بنفسه إلى الحال الأخلاقية التي يجد فيها طمأنينة نفسه، وكماله الأخلاقي الروحي الذي تشغله به نفسه، ويكون مستوى طموحها الأبدي. ولهذا السبب كانت رغبتنا في البحث في هذا الجانب انطلاقا مما عني به أهل التصوف من أشكال التحول والانتقال التي تعرفها بعض النفوس والتي اصطلحوا على تسميتها بالتوبة التي هي "حالة تأزم حادة تصيب الإنسان مصحوبة بعدم الراحة وذهاب الثقة بالمعقولات والمحسوسات، واضطراب مزعج في النفس تفقد معه اليقين والطمأنينة. . . "[(1)].

وقد كانت انطلاقتنا في ذلك البحث من النظر في المصطلحات الصوفية الواردة في كتاب "زبد خلاصة التصوف المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز للإمام العز بن عبد السلام المتوفى سنة660هـ [(2)] الذي شرع في بسط

(1)- د. عرفان عبد الحميد فتاح: *دراسات في الفكر العربي الإسلامي (أبحاث في علم الكلام والتصوف والاستشراق والحركات الهدامة)*، دار الجيل، ط1، 1412- 1991، ص: 299.

(2)- العز بن عبد السلام السلمي الدمشقي ثم المصري شيخ الشافعية وقدوة الصوفية، أخذ الفقه عن ابن عساكر، والأصول عن الآمدي، ورحل إلى بغداد، وسمع الحديث من ابن طبرزد وغيره، كما انتقل إلى مصر حيث ولي الحكم بالديار المصرية، ومن أقواله: الشريعة كلها مصالح، إما بدرء مفاسد، أو بجلب مصالح، فإذا سمعت الله يقول: "يا أيها الذين آمنوا" (البقرة: 153)، فتأمل وصيته

مسائله بقوله: "اعلم أن من مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان. . . "[3]، وبقوله: "واعلم أن هذه المراتب لا تصل إلى واحدة منها حتى تحكم ما قبلها، ولكل واحدة منها طريق معلوم وسلوك مقسوم، وأصل ذلك كله وملاكه التوبة لأن التوبة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام يجب ما قبله. . "[4].

مشكلة البحث:

إن قضية المصطلح الصوفي من القضايا التي تمثل جوهر السلوك الصوفي، وذلك بحكم أنها تمثل الجانب النظري للخطوات العملية التي يسلكها المتأدب بآداب المتصوفة للوصول إلى مقاصدهم من مجاهدة النفس. فما التصوف؟ وكيف كانت نشأته؟ وما علاقته بالسياقين التاريخي والاجتماعي؟ وما أهدافه؟ وإذا كان التصوف يهدف إلى تقويم الأخلاق، وتصفية النفوس، وتزكية العقول، وتطهير الأرواح، وإسقاط الاعتبارات المادية من الحياة، والدعوة إلى السمو والإيثار، فكيف نستنتج طريق الوصول إلى ذلك من دراسة العز بن عبد السلام للمصطلحات الصوفية في كتابه؟ وما دور التعرف على هذا الدرس المصطلحي في بعث الطمأنينة الروحية والسكينة النفسية في المجتمع العالمي المعاصر الذي توترت فيه العلاقات الإنسانية، فكان سببا في ظهور العديد من ظواهر التمزق الوجداني والقلق الوجودي، الشيء الذي يطرح إشكالية العلاقة العلمية بين دراسة المصطلح باعتبار مركزيته الأخلاقية وتحقيق هذه الأهداف السلوكية الإنسانية الهادية إلى طريق الله؟ وذلك ما دفعني إلى جمع المصطلحات الواردة في هذا الكتاب ودراستها من أجل الأجوبة عن تلك الأسئلة، وبيان منهج العز ابن عبد السلام في عرض التجربة الصوفية من خلال شرح مصطلحاتها.

أهداف البحث:

1. استخراج وقراءة المصطلحات الواردة في كتاب "زبد خلاصة التصوف".
2. استنباط منهج العز ابن عبد السلام في دراسة المصطلح الصوفي، وعرض مضمونه العلمي والعملي، وطريقة استعماله في الخطاب والسلوك الصوفيين.
3. الوقوف على غنى اللغة العربية المتمثل فيما تتوفر عليه من المفردات والمصطلحات التي تعكس ذاكرتها الوجدانية فضلا عما تتوفر عليه في المجالات الحضارية والتاريخية الأخرى.
4. إبراز المشاكل والصعوبات التي تعترض توحيد المصطلح الصوفي الذي يعد المدخل الرئيس لفهم الخطاب والتجربة الوجدانية لجماعات المتصوفة.

أهمية البحث:

تتمثل أهمية هذا البحث في النقاط التالية:

1. الوقوف على منهج العز ابن عبد السلام في دراسة المصطلح الصوفي.
2. بيان قيمة كتابه "زبد خلاصة التصوف" العلمية.

بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا يحثك عليه، أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بينهما. توفي بمصر سنة ستين وستمائة، ودفن بالقرافة الكبرى (مقدمة تحقيق كتاب زبد خلاصة التصوف لمحمد عبد الرحمن الشاغول، ص: 7- 10).

(3)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف*، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، ، مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي، القاهرة 2005، ص: 17

(4)- نفسه: 20.

3. إثارة أهمية دراسة التراث العلمي الصوفي من أجل التحقق من مرجعيته العلمية، وإثارة الأسئلة عن جدواها في المجتمع المعاصر.
4. عرض النموذج الصوفي من خلال دراسة المصطلح الذي يضبط سلوك المتصوفة خلال مختلف المراحل التي يسلكونها لبلوغ الكمال الأخلاقي، وللجواب عن الأسئلة التي تطرحها ظروفهم وأحوالهم.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي حيث عملت على استخراج المصطلحات الصوفية من الكتاب ودراستها من أجل بيان وظيفتها في تهذيب النفس وإصلاح السلوك.

الدراسات السابقة وعلاقة هذه الدراسة بها:

لم أعثر على بحث عالج المصطلحات الصوفية في كتاب "زبد خلاصة التصوف المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز"، غير أنه لابد من الإشارة إلى أن دراسة المصطلح الصوفي حظيت بعناية العلماء منذ القديم، ومن ذلك:

1. كتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز في شرح بعض المصطلحات والمفاهيم الصوفية المبهمة للشيخ عز الدين عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي الذي حققه د. محمد بوخنيفي، وصدر عن دار الكتب العلمية بلبنان.
2. مخطوط كتاب "خواتم الحكم وحل الرموز وكشف الكنوز لعلاء الدين علي دده السكتوارمي البسنوي.
3. المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل لمؤلفه محمد المصطفى عزام.
4. معجم ألفاظ الصوفية لمؤلفه حسن الشرقاوي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة.
5. المعجم الصوفي للدكتورة سعاد الحكيم، دندرة للطباعة والنش، لبنان.
6. معجم المصطلحات الصوفية للدكتور أنور فؤاد أبي خزام، مكتبة لبنان ناشرون.
7. معجم مصطلحات الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني، دار المسيرة، بيروت.

خطة البحث:

قسمت هذا البحث إلى مقدمة، ومبحثين وخمسة مطالب، وخاتمة.

المبحث الأول: التصوف وأهمية المداخل اللغوية في فهم التجربة الصوفية.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: حقيقة التصوف وأهدافه:

نتساءل في بداية هذا المبحث عن ماهية التصوف؟، لنجيب بعبارة مختصرة لا تخلو من عبرة وعظة بأنه طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح [5]، أو هو بعبارة أخرى التماس الحق عن طريق تطهير النفس من ملذات الدنيا ولا سبيل إلى تطهيرها إلا بقهر الجسد وحرمانه من مشتهياته ورغباته الدنيوية، وذلك بالانقطاع إلى العبادة وممارسة الصلاة والتقشف [6]. وإذا عدنا إلى التاريخ العربي الإسلامي وفتشنا عن هذه الظاهرة الإسلامية، سنجد أن التصوف استوى على سوقه، وازدهر في العصر العباسي، الذي حفل بأسماء

(5)- مجمع اللغة العربية: *المعجم الوجيز*، الطبعة الأولى 1980، ص 374.

(6)- ناصيف إميل: *أروع ما قيل في الزهد والتصوف*، دار الجيل، بيروت، ص 97.

لامعة لمتصوفة عرب مثل "الحلاج" [7] و"رابعة العدوية" [8] و"ذي النون" [9] واللائحة طويلة. فهو ظهر أولا باعتباره ردا فعليا دينيا عندما اختلت الموازين واختلطت المفاهيم وضاعت الحقوق [10].

يبدو أن ما نستخلصه من هذه الإشارات هو أن التصوف لم يكن وليد لحظة سكونية بقدر ما كان صيحة ثارت على أوضاع مجتمع لم يكن يهدف سوى إلى الاهتمام بملذات الدنيا فنشأت هذه الفئة من الناس (المتصوفة) الذين اجتنبوا العالم المادي، وراحوا ينكبون على إحياء عالم روحاني تتجلى من خلاله طهارة النفس من أدران المادة ومن ملذات الدنيا الزائفة، وفي هذا الصدد يقول "ماسينيون": "منشأ النزوع إلى التصوف ثورة الضمير على ما يصيب الإنسان من مظالم . . . وقبل كل شيء على ظلم الإنسان لنفسه . . " [11]

فالصوفية إلى جانب كونها طريقة سلوكية فردية، هي أيضا حقيقة جمعوية تهدف إلى تجاوز المألوف غير المرضي إلى طريق أكثر إرضاء، لذلك نجدها قد دعت وما زالت تدعو إلى حلول أو بناء واقع جديد يتجاوز غيره، وقد دعت إلى هذا التغيير عن طريق شفرة لغوية جديدة أيضا، لأنها كانت دعوة خاصة بطبقة معينة من أهل الطريق – أهل الحقيقة [12].

المطلب الثاني: أهمية تحديد المصطلح في التجربة الصوفية:

وإذا كانت هذه هي بدايات التصوف باعتباره عبادة بالدرجة الأولى ترقى بصاحبها إلى مصاف خاصة الخاصة، وتخفف من غلواء معاناته من جبروت مجتمعه، فإن متابعتنا للمصطلح الصوفي من خلال كتاب "زبد خلاصة التصوف المسمى حل رموز ومفاتيح الكنوز" تهدف إلى التعرف على طريقة العز ابن عبد السلام في عرض المصطلحات الصوفية وشرحها لتؤدي وظيفتها في العمل الذي هو في النهاية مقصد الديانة، وقد بين ذلك العز بن عبد السلام في مقدمة الكتاب بقوله: "فإنه لما كانت المعاني جواهر، والألفاظ أصدافها، والحكم معادن والقلوب أهدافها، وجب على من فتحت اليقظة عين بصيرته، وجلت الموعظة مرآة سريرته أن يتبع من أجل الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغ به أمانيه، ولا يقنع من المعدن بدون كنزه، ولا من اللفظ إلا بفهم رمزه. . " [13] و ذلك ما يسير بنا إلى التعرف على طريقة

---

(7)- الحلاج هو الحسين بن منصور، نشأ بواسط، خالط جماعة من الصوفية منهم سهل التستري والجنيد وأبو الحسن النوري، وغيرهم. ورحل إلى بلاد كثيرة منها مكة وخراسان والهند التي تعلم السحر بها، وأقام أخيرا ببغداد، وبها قتل سنة 309هـ، تبرأ منه سائر الصوفية والعلماء، ونسبوه إلى الحلول والزندقة. (أنظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، ج2، ص: 140- 156).

(8)- هي أم الخير رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية الصالحة المشهورة، كانت من أعيان عصرها، لها أخبار في الصلاح والعبادة مشهورة، كانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة، أو في سنة خمس وثمانين ومائة، ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس، ج2، دار صادر، بيروت، أكتوبر 1969، ص: 285- 288.

(9)- أبو الفيض توبان بن إبراهيم، وقيل الفيض بن إبراهيم، المصري المعروف بذي النون، الصالح المشهور، أحد رجال الطريقة، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك، وكان المتوكل العباسي إذا ذكر أهل الورع بين يديه يبكي ويقول: إذا ذكر أهل الورع فحي هلا بذي النون. توفي سنة خمس وأربعين ومائتين من الهجرة، بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى (وفيات الأعيان لابن خلكان ج1، ص: 315- 318).

(10)- الغرميني عبد السلام: *الصوفي والآخر، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن*، شركة النشر والتوزيع –المدارس- الدار البيضاء الطبعة الأولى 2000، ص: 53.

(11)- دائرة المعارف الإسلامية، (*مادة التصوف*)، ص: 62.

(12)- كعوان محمد: الكتابة بين الوجودية والسريالية والصوفية، *مجلة الدراسات الأدبية في الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما* العدد13 السنة2005، ص 192.

(13)- العز بن عبد السلام: زبد خلاصة التصوف (مذكور)، ص: 13.

العز بن عبد السلام في التعامل مع الألفاظ، حيث تبدو دقته المتناهية في التوجيه إلى اختيار المعاني العليا من الألفاظ الدقيقة المعنى، ولاشك فإن مصطلحات الإيمان واليقين التي تقود وجدان المسلمين، ووجدان وفكر العلماء المسلمين حاضرة في طريقة العز في التعامل مع المصطلحات التي سيشرحها في كتابه فإنه بعد أن أنهى كلامه السابق أورد ما يفيد أن كلامه ذلك إنما هو استنتاج مما يعلمه عن غياب الدقة والضبط في إدراك كثير من الألفاظ والمصطلحات التي من الواجب في عرف الشرع معرفتها في عمقها بفقه ويقين، إذ كان رأى أن " كثيرا من الألفاظ قد ارتبك في أغماضها كثير من أهل الاعتراض فمنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أي أحسن جوامعه، ومنهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد عجز كثير عن حلها لعز محلها . . . "[14]، وأكد هذا الكلام بأدلة من مصادر متنوعة، ومن ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: " ما وسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن "[15]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إني لست كأحدكم إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني"[16]، ومن أقوال الناس قول القائل على سبيل التمثيل: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا"[17]، وقول الآخر: "أنا الله"[18]، وقول الآخر: "ما في الجبة إلا الله"[19]. . . ثم عقب على هذه الأدلة بقوله: "فهذا كله وما شاكله وماثله القول فيه واحد لأنها وإن اختلفت ثمارها وتنوعت أزهارها لكنها تسقى بماء واحد تشير إلى محو الاثنين وثبوت الواحد، فقوم تلقوه بالتسليم وقابلوه بالقلب السليم، وحملوا ذلك على معنى قوله عليه السلام: "إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله، فإذا تكلموا به أنكره أهل الغرة بالله"[20]. وبناء على هذا فإننا إذا كنا نعلم أن "التصوف رعاية حسن الآداب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده، مقدما الاهتمام بأفعال القلوب مراقبا خفاياها، حريصا بذلك على النجاة"[21]، فإننا نتوصل من خلال كلام العز ابن عبد السلام السابق إلى أن تلك الأقوال الصادرة عن بعض المتصوفة إنما هي من قبيل العلم الوجداني الذي يسمو على المعرفة البسيطة، وتلك المعرفة الوجدانية يختص بها أهل العلم بالله، التي تقوم معرفتهم على الكشف والاطلاع على ما وراء حجاب الحس والعقل من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا وشهودا، وهذه المعرفة الكشفية تحصل في الحياة الدنيا بدرجات متفاوتة، إذ كلما صفت النفس الإنسانية أصبحت قادرة قوية على الكشف والاطلاع[22]، كما قال العز بن عبد السلام إن تلك الأقوال كما تأتي فتحا تأتي شطحا، والشطح: "هو وجد عنيف تشعر به النفس الإنسانية حينما تكون في حضرة الألوهية، فلا تستطيع الكتمان، فإن اشتد بالصوفي الوجد وكان في حالة سكر، أي في حالة فقدان الوعي وغياب التفكير العقلي المنطقي، يأتي بألفاظ يخالف ظاهرها ظاهر الشرع. . . "[23]وهو مشروط بحالة السكر هذه وفقدان الوعي لكبر التجربة الوجدانية التي يعيشها المتصوف في التعبير عن حبه لله، "وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه، ولم

---

(14)_نفسه: 13.

(15)- نفسه: 13.

(16)- نفسه: 14.

(17)- نفسه: 14.

(18)- نفسه: 14.

(19)- نفسه: 14.

(20)- نفسه: 15

(21)- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد): *شفاء السائل لتهذيب المسائل*، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان- دار الفكر، دمشق، سورية، ص: 54

(22)- د. العدلوني الإدريسي محمد: *التصوف الأندلسي (أسسه النظرية وأهم مدارسه)*، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2005، ص19.

(23)- نفسه ص: 23.

يملكه الحال فمؤاخذ أيضا، ولهذا أفتى الفقهاء. . . بقتل الحلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله . . . " [24]، وحيث كان الأمر كذلك فإن العز ابن عبد السلام أخذ على نفسه تأليف كتابه لبيان أن تلك المفردات تعتبر اصطلاحا لأهل الذوق والكشف وأهل الشطح، وبالتالي فهي حقيقة علمية لغوية، وذلك ما نقرؤه في قوله: "فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال، وقد أشكل على الأفهام تعليلها، وعزب عن الأوهام تأويلها أحببت أن أشرح منها ما انشرح له صدري، وسنح به فكري، وبلغ إليه قدري، وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة، وقدمت ذكر هذه الأحاديث، وما معها من الألفاظ المأثورة عن الرجال، وجعلتها أسا للكلام، وبينة لثبوت الأحكام لتكون منوالا أنسج عليها ما كان حالا لا محالا، وسميتها: حل الرموز ومفاتيح الكنوز" [25].

المطلب الثالث: المضمون العملي للمصطلح الصوفي من مكونات حقيقته:

اتضح مما سبق أن هذه الرموز والكنوز التي يعمل العز بن عبد السلام على شرحها هي رموز جماعة لغوية، وهي جماعة أهل الأحوال، فكيف يمكن التقرب من معجم هذه الجماعة، وهل بإمكان جماعات المسلمين كافة أن تدرك مفردات هذا المعجم ومصطلحاته من أجل اكتساب العلم الصوفي، ومعرفة أحوال المتصوفة، وتجاربهم الوجدانية خاصة وأنها معرفة تغري الناس بالاطلاع عليها، وامتلاك نواصي وحقيقة معاني ألفاظها ومفرداتها، بل إن مجتمع التصوف بكل أنظمته العلمية واللغوية والوجدانية يغري بالغوص فيه من أجل اكتساب النفحات الإيمانية، والتحلي بالفضائل والأخلاق التي يدعو إلى تربية النفس البشرية عليها، قال أحد الباحثين: "إنما نتوخى من اللغة أن نتمكن بواسطتها من تحديد رؤية كل منا للعالم الذي يحيط به" [26]، ومن هنا نقف على المسؤولية التي أراد العز بن عبد السلام تحملها في بيان أن هناك تراتبية في المقامات والمعارف، وأن تلك التراتبية مصدرها الدين الإسلامي، وكل ذلك ليبين أن مصدر هذه اللغة الوجدانية لدى أهل الأحوال مصدرها المعاني الشريفة، والأحوال والمقامات العليا التي يدعو الدين الإسلامي النفس البشرية إلى بلوغها حتى تنال السعادة، ويبدو ذلك من خلال تسمية الكتاب "حل الرموز ومفاتيح الكنوز"، فإنه قال: "سميته بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه: "كنت كنزا لا يعرف" [27].

والواقع فإن المعرفة العلمية لهذه الكنوز التي يقدم العز بن عبد السلام على تعريف القراء بها هي بنيان لغوي محكم الصنع يحتاج إدراكه إلى بنيان محكم يقابله، ويتغذى بالسلوك العملي التنفيذي لذلك المعجم الصوفي الرباني، فإنه لما أقدم على شرح تلك التراتبية القائمة في الكون الإلهي بقوله: "اعلم أن من مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين، ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين، ثم الإحسان أول معارج الروح لخاصة المقربين" [28]، بين أن حديث سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان يفسر ذلك [29]، مبينا" أن تلك المراتب لا تصل إلى واحدة منها حتى تحكم ما قبلها، ولكل واحدة منها طريق معلوم وسلوك مقسوم، وأصل ذلك كله وملاكه التوبة لأن التوبة تجب ما قبلها كما

(24)- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد): *المقدمة* طبعة دار الشعب 1986 ص: 475.

(25)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف* (مذكور)، ص، 15- 16.

(26)- د. الرديني محمد علي عبد الكريم: *فصول في علم اللغة العام*، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص، 15

(27)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف* (مذكور)، ص، 16.

(28)- نفسه: 17.

(29)- نفسه: 17.

أن الإسلام يجب ما قبله" [30]، وهكذا يبدو أن عملية الشرح للمفردات التي تكون معجم أهل الأحوال تحتاج من الدارس أن ينظر إلى تجربتهم في سياق تراتبي تصاعدي متدرج، وأنه لا يكفي معرفة معنى المصطلح معرفة دلالية فكرية، بل لابد أن تبنى تلك المعرفة على سلوك عملي.

تبين من خلال النص السابق أن أساس الانتقال في مراتب الإسلام فالإيمان فالإحسان يقوم على أساس التوبة، ومن أجل ذلك يغوص بنا العز بن عبد السلام في شرح معنى التوبة لدى أهل التصوف ممن يرغبون العروج بأنفسهم إلى المراتب العليا في الامتثال للأمر الرباني للظفر بالسعادة الدنيوية والأخروية، وكل ذلك يبرز أن المعجم الصوفي معجم سلوكي عملي قائم على شرح المفردات من خلال أدب السلوك مع الله سبحانه، لأن السلوك الصوفي هو تمسك بالآداب والأخلاق الإسلامية النابعة من خلق القرآن ومن أبرزها " قلة الإشارة وترك الشطح في العبارة والتمسك بعلم الشريعة، ودوام الكد واستعمال الجد، والاستيحاش من الناس وترك الشهرة في الناس. . . واختيار الفقر، ودوام الذكر، وكتمان المحبة، وحسن العشرة في الصحبة. . . وترك مؤاخاة النسوان، ودوام درس القرآن، أي اتباع سلوك يعتبرون أنه يقوم على الاقتداء بالسنة والتزام الشريعة تفكيرا وقولا وعملا، وذلك من خلال ضبط النفس وكبح جماحها ومجاهدة ميولها من أجل تصفيتها وتطهيرها من أدران الجسد وتدبر آيات القرآن ودوام ذكرها" [31].

يبرز شرح العز بن عبد السلام أن أساس الدخول إلى طريق أهل التصوف هو التوبة التي تمثل كالشجرة القائمة في تدرجها على ثلاث مراتب أولها التوبة وأوسطها الإنابة وآخرها الأوبة ذلك أن من تاب خوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب رجاء متوبة فهو صاحب إنابة، ومن تاب حفظا وقياما بالعبودية لا رغبة في التواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، والتوبة صفة المؤمنين قال الله تعالى: "وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون "النور: 31) [32]، ثم خلص بعد شرح ذلك التقسيم إلى القول: "واعلم أن السالك إذا صدق في توبته لزمته المجاهدة واستعمال جوارحه في الطاعات. فإذا داوم العبد المجاهدة أثمرت له حركات ظاهرة وبركات باطنة فإن حركات الظاهر توجب بركات الباطن، لأن الله سبحانه جعل بين الأجساد والأرواح رابطة ربانية وعلاقة روحانية، فلكل منهما ارتباطه بصاحبه وتعلق به يتأثر بتأثر صاحبه. فإذا عملت الجوارح بالطاعة، وإذا أخلص القلب بالطاعة أثر ذلك على قلبه فيخشع قلبه وتصفو روحه وتزكو نفسه، وإذا أخلص القلب بالطاعة أثر ذلك على جوارحه فاستعملها في طاعته، ألا تراه عليه السلام يقول لذلك الرجل الذي رآه يعبث في صلاته: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"، وقال: "من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"، فلزوم المجاهدة يوصل إلى حضرة المشاهدة ألا تراه سبحانه وتعالى يقول لنبيه وحبيبه: "ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا" (الإسراء: 79). فإذا كان مقصود الوجود لا يصل إلى المقام المحمود إلا بالركوع والسجود فكيف يطمع بالوصول من ليس له محصول، قال أبو عثمان المغربي رحمة الله عليه: كل من ظن أنه يفتح عليه بشيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو في غرور وغلط" [33].

يبدو من خلال هذا النص أن العز بن عبد السلام يرسم طريق أهل التصوف، ولذلك رسخ في الذهن المنازل العليا التي هي مستوى طموحهم، وقد بلغ ذلك من خلال مصطلحات دقيقة في التعبير عن تلك المقامات التي هي صانع رئيس للوجدان الصوفي كمقصود الوجود، وحضرة المشاهدة، وإخلاص القلب، وخشوع القلب، والرابطة

(30)- نفسه، ص: 17- 20.

(31)- د. العدلوني الإدريسي محمد: *التصوف الأندلسي* (مذكور)، ص، 15

(32)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف* (مذكور)، ص، 21.

(33)- نفسه، ص، 23- 24

الربانية. . . وغيرها من المصطلحات التي تكون عدة السالك المتصوف في إخلاصه لطريق أهل الأحوال. ثم عالج العز بن عبد السلام أول مرحلة تقضي على التردد البشري الذي جبل عليه الإنسان، وتلك المرحلة هي مرحلة التوبة التي أطلعنا من خلالها على معجم لغوي ثري بالمفردات التي لا يكفي في معرفتها المعرفة المعجمية المجردة، ولكنها تقتضي سلوكا وأخلاقا تفضي بصاحبها إلى استقامة ظاهرية وأخرى باطنة تظهر حكمتها في تفكيره وتعبيره، مما يعني أن اللغة في شرح العز لهذه الكنوز والرموز هي نشاط سلوكي قائم على معرفة دينية تحكمها أهداف ورغبات آجلة وعاجلة وأخرى أبدية، ومن ثمة نخلص إلى الطبيعة العملية للغة كما يؤكد عيها الباحثون المعاصرون، إذ يقول مالينوفسكي عن تلك الطبيعة: "إن وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل، بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، هي جزء من السلوك الإنساني، إنها ضرب من عمل، وليس أداة عاكسة للفكر، واستعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات البدائية، بل إنه ليلاحظ في أرقى الجماعات تمدنا" [(34)].

المبحث الثاني: التصوف السني وأسئلة الحياة المتجددة:

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة اللغة بالجواب عن الأسئلة الحضارية الملحة:

إن متابعة الدقة السابقة في تدرج السالك في امتلاك المعجم اللغوي لأهل التصوف النظري والسلوكي يبرز أن التصوف السني هو سلوك جماعات متمدنة ترى في التصوف منهجا في الحياة وفلسفة في الإجابة عن مختلف الأسئلة التي تطرحها الحياة الإنسانية، وتلك الفلسفة تقوم على تصفية النفس البشرية مما حشيت به من العجب والكبر والحرص والحقد والحسد وما شابه ذلك مما هو من مألوفات النفس [(35)] . قال ابن الزيات: "ثم اختلفت الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد، ثم ظهرت البدع وحط التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا وعبادا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى والحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف" [(36)].

اتضح من كلامنا عن المعجم الصوفي من خلال المصطلحات التي عالجها العز ابن عبد السلام، أن المصطلح الصوفي يرتبط بالمتكلم السالك في جماعة داخل الدولة الإسلامية، وحركة داخل المجتمع الإسلامي، مما يبرز باستمرار العلاقة الجدلية بين اللغة وأفراد هذه الجماعات، وما يعتقدونه وما يسلكونه، مما يرونه الرؤية القادرة على إحراز نجاة الإنسانية، أو نجاة مجتمع أو طائفة من أفراده طول الوقت أو خلال مرحلة من مراحل التاريخ، ويتضح هذا المضمون من قول أحد الباحثين في سياق التمييز بين التصوف في المشرق والمغرب: "إن التصوف في المشرق ظهر كاتجاه فكري أخلاقي في أواخر القرن الثاني الهجري، في حين أنه لم يظهر في المغرب إلا في القرن الخامس الهجري، وإذا كان التصوف في المشرق قد تطور ليصبح له اتجاه فلسفي إشراقي عرفاني، فإنه في المغرب رغم ملامح التأثير التي تعرض لها ظل في جوهره محافظا على بعده الأخلاقي الزهدي الجهادي، وهذا في نظرنا هو الذي جعل له استقلالية في المضمون وفي الشكل، ويتضح ذلك من خلال ما أحدثه المتصوفة لأنفسهم من مفردات وألفاظ خاصة للتداول بينهم تحاكي وتشابه تلك التي ظهرت في المشرق لفظا كالمقامات والقواعد، لكنها ظلت في المغرب غير حاملة لتلك الدلالة

---

(34)- د. السعران محمود: *اللغة والمجتمع، رأي ومنهج*: ، طبعة طرابلس 1985، ص، 16- 17.

(35)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف* (مذكور)، ص، 24.

(36)- ابن الزيات (يوسف بن يحي التادلي أبو يعقوب): *التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي*، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، رقم 22، الطبعة الثانية، الرباط 1997، ص: 35.

المقصودة هناك، مما يدعونا إلى ضرورة استحضار المفهوم المحلي للألفاظ الصوفية المتداولة في المغرب الأقصى كما فهموها هم لا كما أولت عنهم، مع استحضار جانب التطور والتدرج في اكتمال مفهوم اللفظ. . . "[37]، حيث يستنتج من ذلك أن اللغة الصوفية من خلال ما أنتجت من الاستعمالات اللغوية العملية في العالم الإسلامي في حاجة مستمرة إلى البحث الدقيق، لأنها تعبر عن إسهام الشخصية العربية الإسلامية في الرقي الروحي والحضاري الكوني من خلال ما ينتجه الفكر الإسلامي، ويقدمه للإنسانية توضيحا للحقيقة العلمية. ولاشك فإن متابعتنا المنهجية لكتاب حل رموز ومفاتيح الكنوز للعز بن عبد السلام جديرة أن تجعل القارئ يتوصل إلى أن التواصل اللغوي الصوفي يتم من خلال الحقول الدلالية التي تعبر عن بعض المراحل الخاصة بالتربية والسلوك الصوفيين للمريد، مما يعني أن اللغة الصوفية من خلال هذه المصطلحات تتميز بالدقة في الإحالة على تلك المراحل والدرجات، وفي الإحالة على مضامينها ومقاصدها من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول الاستاذ حسن الشرقاوي: " إن هذه الألفاظ لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف، ولا يتأتى ذلك إلا لسالك يداوم على مخالفة الأهواء، وتجنب الآثام، والبعد عن الشهوات، وإخلاص العبادات، والسير في طريق الله (...) حتى تتكشف لهذا المريد الصادق غوامضها، وتتجلى له معانيها" [38]، وقد عمل العز بن عبد السلام على توضيح الحواجز والعقبات التي يقطعها السالك المتجرد لتحقيق تلك الأهداف حين قال: "واعلم أنك لاتصل إلى منازل القربات حتى تقطع ست عقبات:

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية.

العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية.

العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرهونات البشرية.

العقبة الرابعة: فطم السر عن الكدورات الطبيعية.

العقبة الخامسة: فطم الروح عن التجارب الحسية.

العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية.

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية، ويلمع في العقبة الرابعة أنوار أعلام المنازلات القربية، ويطلع لك في العقبة الخامسة أقمار المشاهدات الحبية، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية، فهنالك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية. فإذا أرادك لخصوصية الاصطفائية سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ، وبالذوق شوقا، وبالقرب طلبا، وبالسكون قلقا. . . "[39]، وإذا علمنا أن معاني المصطلح عند الأقدمين تدور حول المعاني التالية:

أ- عبارة عن اتفاق قام على تسمية الشيء باسم ما، ينقل عن موضعه الأول.

ب- إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما.

ج- اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى.

د- إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى لغوي آخر لبيان المراد" [40]، واستحضرنا التقسيم الرئيس للمعجمات العربية إلى:

---

(37) د. بوتشيش إبراهيم القادري وآخرون: *التصوف السني في تاريخ المغرب (نسق نموذجي للوسطية والاعتدال*، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، رمضان1430- شتنبر 2009، ص: 79.

(38)- ذ. الشرقاوي حسن: *مقدمة معجم ألفاظ الصوفية*، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى1987، ص: 7.

(39)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف (مذكور)*، ص: 26.

(40)- الدرويش محمد: *لغة النظر ونظار اللغة*، ، منشورات فكر، الطبعة الأولى2009، ص: 63.

1. معاجم الألفاظ: التي تفيد في الكشف عن معنى لفظ من الألفاظ. وأقدم هذه المعاجم كتاب العين للخليل بن أحمد [41]، ومنها المحكم لابن سيده، 458هـ [42]، ولسان العرب لابن منظور [43]، والمعجم الوسيط.
2. معاجم المعاني: وتفيد في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني يدور بخاطرنا، ولا ندري كيف نعبر عنه بدقة، ومن أشهر هذه المعاجم: المخصص في اللغة لابن سيده الأندلسي. [44] وتلا هذا تدبر في المفردات اللغوية الواردة في كتاب العز بن عبد السلام التي وقفنا عند الكثير منها في النص السابق من قبيل: الفطم، المألوفات العادية، الرهونات البشرية، الكدورات الطبيعية، التجارب الحسية، الخيالات الوهمية، الحكم القلبية، العلوم اللدنية، المنازلات القربية، أقمار المشاهدات الحبية، الحضرة القدسية، اللطائف الأنسية، الكثائف الحسية، الخصوصية الاصطفائية، كأس المحبة وغيرها كثير تبين لنا أن هذه المفردات التي هي مصطلحات للتواصل بين جماعة أهل الأحوال في حاجة إلى حركية معجمية دقيقة داخل التقسيم السابق للمعجم العربي تعمل على توضيح مدلولات هذه الألفاظ والمصطلحات توضيحا ينفي الغموض الذي نجده في عرض بعض البحوث العلمية لتلك المصطلحات منطلقين في ذلك من أن المعاجم هي مراجع لا غنى عنها في كل بحث مهما كان نوعه، بل هي المرجع الذي يستوي في الحاجة إليه الناشئ المتعلم والباحث المنقب، ولا ريب أن تنوع المعاجم لدى الأمة، وتجددها من حين إلى آخر، وذيوع استعمالها بين الأفراد، دليل على حيوية هذه الأمة وحيوية لغتها، [45]بل إن المعجم يعتبر جزءا من الواقع الاجتماعي للغة، واللغة كائن حي "تخضع عبر تاريخها الطويل إلى قانون من القوانين الحتمية، وهو قانون التطور" [46]، كما أن موضوع المعجمية كما قال جورج ماطوري "هو كموضوع علم الاجتماع، أي دراسة الأفعال الاجتماعية، وسوف تستعمل في كل مرة تستطيع ذلك عطاء ونتائج أخيها الأكبر: علم الاجتماع. . . ولكن الذي يميز علما عن علم آخر ليس هو الموضوع فقط، وإنما هو التباين التام والاختلاف في وجهة النظر، وما يميز المعجمية شيء خاص، فنحن بالانطلاق من دراسة المفردات نحاول تفسير مجتمع معين ويمكننا أيضا أن نعرف المعجمية بأنها علم مجتمعي يستخدم الأدوات اللسانية التي هي الكلمات " [47]، من أجل تصور عالم المتصوفة وإدراكه، ولا أتصور أن ذلك لا يمكن تحققه إذا عملت المعجمية العربية على الشرح العلمي للمصطلح

---

(41)- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كان إماما في النحو واللغة، وهو واضع علم العروض، له من التصانيف كتاب "العين" في اللغة وهو مشهور، وكتاب "العروض" وكتاب "الشواهد" وكتاب "النقط والشكل" وكتاب "النغم" وكتاب "في العوامل". وهو استاذ سيبويه واضع أول كتاب في النحو. توفي في سنة سبعين، وقيل خمس وسبعين ومائة (وفيات الأعيان لابن خلكان (مذكور) ج2، ص: 244-248.

(42)- علي بن أحمد أبو الحسن المعروف بابن سيده ، إمام في اللغة وفي العربية، من أدباء الأندلس، ولد في حدود سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وتوفي في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة من الهجرة. كان ضريرا. وخلف مصنفات كثيرة في اللغة ضاع أغلبها، ولم يبق منها إلا أرجوزة ذات موضوع لغوي، و"شرح المشكل من شعر المتنبي"، و"المخصص في اللغة"، و"معجم المحكم والمحيط في اللغة" (دائرة المعارف ج1، ص: 202).

(43)- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، ولد في سنة 630 هـ، وتوفي في سنة 711 هـ بالقاهرة، من أشهر مؤلفاته: معجم لسان العرب.

(44)- د. الطرابلسي أمجد: *حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب*، ، الطبعة الخامسة1406- 1986، دار قرطبة- الدار البيضاء، ص: 10.

(45)- د. إميل يعقوب: *المعاجم اللغوية بدايتها وتطورها*، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الأولى 1981، ص: 9.

(46)- *د. الودغيري عبد العلي*: المعجم العربي بين التطور والجمود، ، *مجلة الموقف ع1السنة الأولى رجب 1407- مارس1987، ص: 48.*

(47)- ج. ماطوري: *منهج المعجمية*، ، ترجمة عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص: 110.

الصوفي وتجاوز الغموض الذي يظل محلقا به في عالم البعد عن الإدراك البشري، خاصة وأننا نعتقد أن التصوف سلوك بشري ،والعقل البشري خلقه الله مزودا بالطاقات ذاتها كما يتبين من قول كلود ليقي ستراس: "وربما كانت إحدى نتائج البحوث الأنتروبولوجية العديدة، أن العقل الإنساني، بالرغم من الفروقات الثقافية، بين مختلف أجزاء البشرية، هو ذاته هنا وهناك، وأنه يمثل الطاقات ذاتها، ويخيل إلي أن هذا الأمر مقبول من الجميع . . "[48].

المطلب الثاني: الإنتاج الأدبي الصوفي والحاجة الملحة إلى التحديد المصطلحي:

يستنتج مما سبق أن مما يدل على أن إدراك مدلول المفردات الصوفية في إطار معجم علمي يتجاوز الصعوبات التي تعترض التحديد العلمي للمفردات والمصطلحات الصوفية أننا في حاجة دائمة إلى الشرح الدقيق للكلمات المستعملة في الخطاب الأدبي الصوفي، والأمثلة ماثلة بكثرة في النصوص الشعرية التي وردت في كتاب العز بن عبد السلام الذي بين أيدينا، حيث نصبح أمام لغة شعرية لا تحتاج منا فقط إلى استخلاص معناها المباشر، وليس فقط إلى اكتشاف قيمتها التأثيرية في إقناع القارئ وتغييره عن طريق المعنى ومعنى المعنى ، ولكنها أيضا تحتاج إلى تقمص وجداني لإدراك أثر المصطلح في ذات الشاعر المتصوف باعتباره يعاني مدلوله وإيحاءاته التي تمثل سلوكا يتأدب به مع الذات الإلهية في سبيل التدرج والترقي الأخلاقي إذ أن التصوف يقوم على رياضة روحية هدفها الأساسي تصفية النفس وترويضها بالرياضات، وممارسة حياة التقشف، والتزهد في متاع الدنيا، وذلك ما يبدو من خلال قول العز بن عبد السلام الذي يأتي في سياق كلامه عن الحب والمحبة، والتي بدراستها والوقوف عند جل تفاصيلها يستطيع رجل المعاجم أن يختزلها في المعلومة الدقيقة المحيطة بمعنى هذا المصطلح مع بيان أوجه الاتفاق بينها وبين مفهوم الحب والمحبة كما ترد في نصوص الشعر والأدب العربيين، وفي شرح المعاجم المتنوعة، يقول العز بن عبد السلام:

أيها العاشق معنى حسننا	مهرنا غال لمن يخطبنا
جسد مضنى وروح في العنا	وجفـون لا تذوق الوسنـا
وفـؤاد ليس فيـه غيـرنا	فإذا ما شئت أد الثمنـا
فافن إن شئت فناء سرمدا	فالفنا يدني إلى ذاك الغنا
واخلع النعلين إن جئت إلى	ذلك الحي ففيه قدسنـا
وعن الكونين كن منخلعا	وأزل مـا بيننا من بيتنـا
وإذا قيل من تهوى فقل،	أنا من أهوى، ومن أهوى أنا

فمثل هذا النص الشعري وغيره مما هو وارد في هذا الكتاب، وغير ذلك من الكتب التي تتناول التجارب الذوقية الصوفية تحتاج إلى استقراء علمي من أجل استخراج المدلولات الحقيقية للألفاظ والمصطلحات المستعملة فيها، حيث نجد أن اللفظ يسبح بنا في عوالم فسيحة لكنها لا تعدم التحديد في التجربة الصوفية باعتبارها تجربة إنسانية. وحين نقف -مثلا- عند مصطلح السرمدي في القصيدة ونعود إلى قول محمد غازي عرابي: السرمدي امتداد فوق الزمان المرتبط فوق المكان، وهو تنزيه كامل للذات الإلهية التي خلقت كل شيء. فكل شيء له بها علاقة، وليس لها هي علاقة بأي شيء. والسرمد عدم قبول جريان الأمور وتقلبها على الذات الثابتة، ولئن دارت الدائرة فمركزها يدور حول نفسه، فالذات الإلهية تفصل الحركة وتخلق الزمان، وتعين المكان دون أن ينقص هي منها شيء أو يزيد أو

(48)- كلود ليقي ستراوس: *الأسطورة والمعنى*، ترجمة صبحي حديدي، منشورات عيون مقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ص: 19.

تتغير أو تتبدل [49]. أما إذا انتقلنا إلى مصطلح السفر في كتاب العز بن عبد السلام فإنه يأتي بمدلولات تصور حقيقة الوجود الإنساني تصويرا تلزم معرفته لما يحيط به من ظلال معرفية تمتلك قدرة كبيرة في تخييل مدلول السفر في النفس البشرية، يقول: "فاعلم أنه ثبت بما أشرت إليه من أحوال القوم وانتقالهم من هذه الدار إلى تلك الدار، إذ نحن ننتقل من أول خلقنا إلى أن يستقر بنا المنزل في ستة أسفار:

السفر الأول: سفر السلامة من الطين.

السفر الثاني: سفر النطفة من الصلب إلى الرحم.

السفر الثالث: سفر الولد من الرحم إلى الدنيا.

السفر الرابع: سفر من الدنيا إلى القبر.

السفر الخامس: سفر من القبر إلى الموقف والعرض.

السفر السادس: سفر من الموقف إلى إحدى المنزلين إما الجنة أو النار ثم يستقر بك فعلمت أنك في الدنيا عابر سبيل. [50]وإذا قرن هذا بمعاني أخرى للسفر عرضها غازي عرابي استنتجنا أهمية وقيمة معرفة هذه المعاني والتملؤ بظلالها التخيلية في صنع الوجدان الإنساني القادر على التدبر في الكون وآلائه. "فالسفر بدء الكشف، وهو رؤيا صالحة تعد العبد لسلوك الطريق. والسفر الحج إلى البيت المعمور الكائن في زاوية من الصدر، فهو توجه من العالم إلى الذات، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن التجزؤ إلى الوحدة. والسفر مراحل، أولها السفر الأول الذي هو التطهر الكامل وتشديد على أداء الفروض والنوافل مع المبالغة في تنفيذ الأوامر. إن لهذه المرحلة من السفر كل أنواع النصب والتعب، وعلى المسافر أن يستعين بالصبر لقطع هذه المرحلة التي هي أشق المراحل. فلا ليل المسافر ليلا ولا نهاره نهارا. إنه أسير الوقت، قد وجد نفسه على مشارف صحراء السلوك القاسية وليس له من رفيق إلا وحيه وضميره.

والسفر الثاني بدء الاطلاع على عوالم الملكوت بعد أن يكون المسافر قد أدى ما عليه من التزامات، وعاد في طهارته كالطفل الذي ولدته أمه. إن آخر نقطة من نقاط السفر الأول وهو السجود الكلي هو أول نقطة من السفر الثاني وفيه تنشق ذات السالك المسافر لتطل منها أرواح الملأ الأعلى. ويرى المسافر في بدء هذه المرحلة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر.

والسفر الثالث الارتداد من عالم الملكوت إلى عالم الشهادة، وبدء المزج بين عالميهما معا. فبعد العروج إلى السموات السبع الطباق في ذات العارف يهبط إلى أرض البدن التي لم يفارقها. فالرحلة وجدانية ذوقية ومع ذلك فإن لها كل أحاسيس السفر العادي.

والسفر الرابع رفع الستار عن السر. فمن مركز الدائرة تنطلق كل أوامر الجبروت، وهنا يتم التوحيد، ودخول المسافر إلى هذا المقام دخول ذل، إذ عن طريق تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من وحيه بالرمز والإشارة والمكالمة والمشافهة يرى المسافر رأي العين حقيقة أن لا حركة ولا سكونا إلا بأمر الله، وأنه القاهر فوق الأفق الأعلى الذي ما بعده أفق. وهنا تتم العبودية لله حيث يجد المسافر نفسه عاريا من كل ما قد نسبه إلى نفسه من قبل في مراحل سفره، فلا سفره ولا جهاده نفسه ولا صفاته ولا فعله، ليس هذا كله قد تم إلا بإذن الله وعونه وعنايته وتوفيقه. " [51]

(49)- عرابي محمد غازي: *النصوص في مصطلحات التصوف*، دار قتيبة، 1985، ص162.

(50)- العز بن عبد السلام: *زبد خلاصة التصوف* (مذكور): 92.

(51)- عرابي محمد غازي: *النصوص في مصطلحات التصوف* (مذكور)، ص: 163.

وتلك قضية أخرى تضاف إلى ما كنا نستنتجه عن المصطلح الصوفي المعبر عن تجارب السالك، وهي عدم توحيد معاني المصطلحات ومدلولاتها بين أهل التصوف وداخل حركة التأليف فيه. وذلك ما يشير إلى أن أهم مشاكل المصطلح الصوفي-كما يرى الدكتور جميل الحمداوي –تتمثل في تعدد المعنى واستعمال اللفظ المشترك واختلاف التجارب الصوفية العامة والخاصة واختلاف المفهوم من صوفي إلى آخر [52]. ويعني هذا حسب الاستاذ محمد المصطفى عزام أن" المصطلح عرف التعدد والاختلاف أيضا في صور محدودة من حيث صيغه اللفظية، ولكن في معان غير محدودة بسبب تنوع التجارب الروحية وتفاوتها، وهذا التفاوت وذاك التنوع هما اللذان يتحكمان في مضامين المعجم الصوفي، بحيث إنهما ينشئان علائق خاصة بين الدوال ومدلولاتها من جهة، وبينها وبين مصطلحات أخرى في المنظومة الاصطلاحية للسلوك الصوفي، وتلك العلائق تختلف أحيانا كثيرة عن علائق نفس الألفاظ في المعجم اللغوي أو في الحقول الدلالية لتلك الألفاظ. . . أما اختلاف التعاريف للمصطلح الواحد فهو بحسب الذوق (أو المشرب أو المقام أو الوقت) عند كل صوفي، هذا الذوق الذي يحكم عليه عادة من وجهة النظر العامة بأنه ذاتي (غير موضوعي)، ولكنه عند الصوفية عين "الموضوعية الروحية" التي يعتبرونها أوسع من كل موضوعية وضعية، ذلك أن كل صوفي يسلم للآخر فهمه أو ذوقه باعتبار مقامه أو وقته (حاله)، وفي ذات الوقت فإن الصوفية أكثر من غيرهم إدراكا للطبيعة المجازية والتحكمية (الاعتباطية) للغة، ذلك أن انفصال تجربتهم الروحية عن العرف العام يجعلهم يحبون انفصالا حقيقيا بين مدلول اللفظ بحسب العرف العام، ومدلوله بحسب العرف الخاص الذي يشعر به الصوفي، ولا يدرك منه غيره إلا المعنى العرفي العام، ومن ثم فإنهم اعتبروا اصطلاحاتهم وتعاريفها مجرد إشارات إلى معان هم أدرى بحقيقتها، وهذه الحقيقة ليست هي المصطلح المشير إليها، كما أن اللفظ اللغوي ليس هو ما يدل عليه" [53].

خاتمة:

في ختام هذا البحث أشير إلى بعض النتائج التي توصلنا إليها في سياق الجواب عن الأسئلة التي تفرعت عن مشكلته الرئيسة، ومن هذه النتائج:

- أن حركة التصوف ظهرت من أجل تقديم بديل روحاني حفاظا على التوازن الطبيعي ، ومن أجل الأجوبة على الكثير من الأسئلة الاجتماعية والوجدانية والجهادية التي استدعتها الظروف التاريخية والسياسية للمجتمعات الإسلامية.
- أن هذا البديل الاجتماعي الداعي إلى السمو بأخلاق الفرد والمجتمع اقتضى نظاما لغويا تمثل في معجم من المصطلحات التي تعتبر لغة التواصل والسلوك لأهل الذوق والكشف.
- أن ارتباط المصطلحات الصوفية بضبط سلوك أهل الحقيقة قد جعل العلماء يعنون بشرحها وبيان حقيقتها وكشف أسرارها لما أدركوا من غياب الدقة في فهم مدلولات الكثير منها.

(52) انظر مقاله: المصطلح الصوفي بالموقع التالي:- http: //www. minculture. gov. ma/index. php/2010- 01- 11- 01- 40- 04/etudes- essaie/343- jamil- hamsaoui- terinologie- mystique

(53)- د. عزام محمد المصطفى: *المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل*، مطبعة نداكوم، الطبعة الأولى1999، ص، 140- 141.

- أن المعرفة العلمية للسلوك العملي لأهل التصوف ضرورية في إحكام معرفة مدلولات ومفاهيم المصطلحات الصوفية إذ كان مضمونها العملي السلوكي من مكونات حقيقتها.
- أن العز ابن عبد السلام بشرحه للمصطلحات الصوفية كان يسعى لتقديم منهج في التربية الإسلامية منطلقه التوبة التي هي المدخل الرئيس إلى طريق أهل التصوف، وبلوغ أهداف منهجهم الأخلاقي في التربية.
- أن لغة أهل التصوف لا تعدم التعبير عن إسهام الشخصية العربية الإسلامية في الرقي الروحي والحضاري الكوني من خلال ما ينتجه الفكر الإسلامي من الحلول لكثير من المشاكل الاجتماعية.
- أن المصطلحات الصوفية في حاجة إلى حركية معجمية دقيقة بين أنواع المعاجم العامة والمختصة من أجل توضيح مفاهيمها وتوحيدها من أجل تصور عالم المتصوفة الوجداني، وفهم خطابهم وسلوكهم.

وعموما فإن الأسئلة التي طرحنا في هذا البحث جعلتنا نقف على أهمية دراسة المصطلح الصوفي لمعرفة أسس المنهج الصوفي في تقويم السلوك والسمو بالنفس خلال مختلف المراحل التي يسلكها المتأدب بآداب الصوفية في طريقه لبلوغ الكمال الأخلاقي غير أننا في سياق هذا النظر وقفنا كذلك على ما يعرفه هذا المصطلح من الإشكالات العلمية، وذلك ما يدفع إلى التفكير في صيغة جديدة للتخلص من التشتت الذي يعرفه المصطلح في تاريخ التصوف الإسلامي.

المصدر:

- العز بن عبد السلام: زبد خلاصة التصوف، تحقيق محمد عبد الرحمن الشاغول، العز بن عبد السلام، مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي، القاهرة 2005.

المراجع:

- الإدريسي (محمد العدلوني): التصوف الأندلسي (أسسه النظرية وأهم مدارسه)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2005.
- بوتشيش (إبراهيم القادري): التصوف السني في تاريخ المغرب (نسق نموذجي للوسطية والاعتدال، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، رمضان1430-شتنبر 2009.
- ابن خلدون (عبد الرحمن ابن خلدون الحضرمي المغربي):

1. شفاء السائل لتهذيب المسائل دراسة وتحقيق ابن تاويت الطنجي، اسطنبول 1958
2. شفاء السائل لتهذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان-دار الفكر، دمشق، سورية.
3. المقدمة، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة، الفجالة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة.

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر):وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- دائرة المعارف الإسلامية، نقله إلى العربية محمد ثابت الفندي –أحمد الشنتناوي- إبراهيم زكي خورشيد- عبد الحميد يونس.
- الدرويش (محمد): لغة النظر ونظار اللغة، ، منشورات فكر، الطبعة الأولى2009
- الرديني (محمد علي عبد الكريم): فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

- ستراوس (كلود ليقي): الأسطورة والمعنى، ترجمة صبحي حديدي، منشورات عيون مقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء.
- السعران (محمود): اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ط طرابلس 1985.
- الشرقاوي (حسن) مقدمة معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى1987.
- الطرابلسي (أمجد) حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، الطبعة الخامسة1406-1986، دار قرطبة-الدار البيضاء.
- عرابي (محمد غازي): النصوص في مصطلحات التصوف، دار قتيبة، 1985.
- عزام (محمد المصطفى): المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل، مطبعة نداكوم، الطبعة الأولى1999.
- الغرميني (عبد السلام): الصوفي والآخر، دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن، شركة النشر والتوزيع – المدارس-الدار البيضاء الطبعة الأولى 2000.
- ماطوري (جورج): منهج المعجمية، ترجمة عبد العلي الودغيري، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ، الطبعة الأولى 1980 .
- المرزوقي (أبو يعرب): شفاء السائل لتهذيب المسائل، دراسة تحليلية للعلاقة بين السلطان الروحي والسلطان السياسي، الدار العربية للكتاب، تونس 1991
- ناصيف (إميل): أروع ما قيل في الزهد والتصوف، تأليف: ، دار الجيل، بيروت.

المجلات:

- مجلة الدراسات الأدبية في الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما العدد13، 2005.
- مجلة الموقف المغربية ع1السنة الأولى رجب 1407-مارس1987.

مواقع إلكترونية:

- http://www. minculture. gov. ma/index. php/2010-01-11-01-40-04/etudes-essaie/343-jamil-hamsaoui-terinologie-mystique

The sufiterms in the book "zubad kolasat ATTASSAWOF" of imam AL IZZ IBN ABD ASSALAM died in 13th century

Abstract: The objective of this study is to follow the sufiterms mentioned in the book "zubadkolasat ATTASSAWOF" of imam AL IZZ IBN ABD ASSALAM who died in 13thcentury. our study is based on the fact that the Sufism is a method of refinement of ethics and self-filtering. this show that term is the essence of this method. for this we have studied the sufiterms in the context of the objectives of mystical community for being approach to the comprehension of readers who they think to Assimilate mystic science and Emotional experiences of Sufism men who they represented a linguistic community which owned ability to attract knowing its scientific linguistic and sentimental systems in order to gain virtues and high morals that humanity needs to the stabilization of order in world. After that we can concluded that sunni Sufism is a civilized method of life and a philosophy in answering to the questions posed by all people searching peace of mind and confort.

keywords: the sufiterm- refinement of ethics- mystical community- Emotional experiences- mystic science- sunni Sufism .